فمضي العمر يودعه

جمال النوفلي

همسات الفقد ستوجعه
وشجى المفقود وأدمعه
وضجيج الحزن وثورته
ستدور عليه وتفزعه
وسيلوي الشوق تصبره
وكذاك ستلوى أذرعه
قد كان توقع أشياء
وأتى ما لا يتوقعه
كالنسر يحط على ذهب
فإذا ما حلق يوقعه
الريم ستعكس أياما
قد تطوي الهم وتشرعه
عيناك وإن سطعا ألقا
فليالي الحزن ستتبعه
فدع المحبوب يطير شذى
ورياح الوجد تشيعه
وسماء الخلد تناظره
شوقا والخير يشفعه
ودنى العصفور على تل
بالعطر يفوح تضوعه
فهنالك قلب مضجع
وهنالك حب يرفعه
فإذا استعظمت تودعه
فمضي العمر يودعه
ما صنع الناس على كمد
فعلام بربك تصنعه
لا تغد فديتك في طلل
قد يبكي القلب تموضعه
يكفيك من الأحزان دعا
يستهوي الروح تضرعه
قد يدمي العين رحيل هوى
ويريح البال تجمعه
الموت حياة خالدة
في قلب حبا يوسعه
وضياء يفتح أبوابا
لولاه لكانت تمنعه

توزيع جوائز الآغاخان لدورة ٢٠١٦ في «العين»

د. وليد أحمد السيد
sayyedw14@gmail.com

ربما يكون من نافلة القول أن الحفل الختامي لتوزيع الجائزة، أية جائزة، يمثل ذروة الحدث وخلاصة عمل شاق مضن يستمر لدورة كاملة قوامها ثلاثة أعوام في الغالب هي مدة دورات معظم الجوائز. وفي حالة جائزة الآغاخان للعمارة التي انطلقت منذ نهاية السبعينيات بدعم وتشجيع من سمو الأمير الآغا خان، وهو خريج جامعة هارفارد ومحبّ عظيم للعمارة عموما بما يفسر دعمه اللامحدود وتقديمه للجائزة على مدى ما يقارب الأربعين عاما من أجل رفد وتشجيع وتقييم الأعمال المعمارية في العالم العربي والإسلامي، في حالة هذه الجائزة التي تقترب من سن الأربعين من عمرها – وعمر الأربعين في معتقدنا هو سن النضوج والكمال، نلقي الضوء على بعض لقطات من حفل توزيع الجائزة في دورتها الأخيرة والتي أقيمت مطلع الشهر الماضي في مدينة العين وتحديدا في قلعة الجاهلي المدرجة على قائمة التراث العالمي.

تظاهرة معمارية حاشدة

من أهم ملامح حفل التوزيع أنه يعتبر بحد ذاته تظاهرة معمارية حاشدة وغير مسبوقة حيث يضم نخبة من أهم رموز العمارة وما يدور في فلكها في العالم. فبالإضافة للحضور الرسمي السياسي والمؤسساتي، الذي يمثله حضور الآغا خان وما يقابله من الدولة المضيفة لحفل التوزيع، والذي جرت العادة أن تستضيفه دولة مختلفة في كل دورة، فهناك حضور لافت ومهم يتمثل في اجتماع حاشد لأهم منظري وناقدي ومعماريي وقتنا الحالي، فضلا عن مستلمي الجائزة ومن ترشحت مشاريعهم للقائمة القصيرة، وأكاديميين بارزين عالميين ومخططين ومفكرين في علوم العمران – وفي هذه الدورة الأخيرة اجتمع أكثر من ٢٦٠ مدعوا لهذه التظاهرة العمرانية. ومن اللافت أن هذا الحضور لم يمثل الدول العربية والإسلامية بل شمل أقطاب العالم الغربي عموما والعالم، واجتمع على طاولات النقاش العفوية مزيج من عقول ومفكرين من أقصى الشرق إلى غرب أميركا وأستراليا وكندا.

بزوغ نجم جديد

في هذه الأجواء سيطر الحضور النسائي المعماري وتسيّد سدة النقاش والتكريم، فقد تسلمت ثلاث نساء على الأقل جوائز تكريم عن المشاريع التي تقدمت وفازت بالجائزة. ولم تكن مارينا تبسوم، المعمارية القادمة من بنجلاديش والفائزة بالجائزة عن مسجد بسيط صممته وورثت الأرض المقامة عليه من جدتها تعلم مدى الاهتمام الذي ستحظى به في أروقة الحفل وعلى منصات النقاش به. فالعالم المعماري قلما يصادف امرأة تصل لذروة التكريم وعن تصميم مسجد تحديدا. لكن هذه المعمارية الحاذقة القادمة من الشرق وبعفوية وبساطة أهل بنغلادش غطت على جميع المداخلات الأكاديمية المنمقة باسلوبها البسيط في الحوار وفي تعبيرها عن فلسفتها المعمارية في بناء وتصميم المسجد الذي خلا من المفردات التقليدية التي توارثها المعماريون عبر أكثر من الف واربعمائة عام. وبدلا من ذلك قدمت

مركز ثريد لسكن الفنانين والمركز الثقافي، (السنغال)

مسجدا بسيطا يغمره النور. وفي الحقيقة فقد عكست شخصية هذه المعمارية من خلال الجلوس معها على طاولة الإفطار روح التصميم المعماري الذي قدمته في هذا المسجد. وأظهرت دون تكلف أو ديكورات كيف يكون الإبداع بالبساطة ففي البساطة الجمال والجمال يخلو من التعقيد. وكم كان مؤثرا أن ترى موظفي صالة الطعام بالفندق في مدينة دبي الذين أصولهم من بنغلاديش يشاطرون المعمارية مارينا تبسوم فرحتها الفوز، فقد قاموا بطباعة المسجد على أوراق صغيرة بالألوان وتقدموا من المعمارية للحصول على أوتوغراف تاريخي تذكاري بتوقيعها على صور مسجدها لهؤلاء الكادحين المغتربين.

وجه آخر للجائزة

بمقابل هذه البساطة والعفوية التي قدمته بعض المشاريع الفائزة والتي تتفاعل بعفوية وبساطة مع الطبيعة ومع الناس والمجتمع، برزت مجموعة من التساؤلات لدى عرض مشروع الجامعة الأميركية ببيروت في معهد عصام فارس والذي صممته الراحلة زها حديد وتقدم لاستلام الجائزة عنها شريكها في المكتب بلندن مايكل شوماخر. والمفارقة أن عرض هذا المشروع جاء متزامنا مع عرض مشروع مسجد بيت الرؤوف البسيط للمعمارية من بنغلاديش مارينا تبسوم. وبدا على المنصة مفارقة حادة بين الشرق وبين الغرب تجاوزت التصميم المعماري لتباين ثقافي بين البساطة الفطرية الشعبوية التي تمثلها معظم الشعوب الشرقية وبين التعقيد العولمي الذي تعكسه ثقافات العالم الحديث المتعولم. ولذلك فقد سيطر على جو الندوة في دبي والتي سبقت حفل التوزيع لاحقا في مدينة العين، سيطرت أجواء مفارقة ولاحت بالأجواء تساؤلات عديدة صامتة عن حيثيات وصول مشروع الراحلة حديد للفوز بالجائزة خصوصا وأن فلسفة التصميم قائمة على تحدي الموجود والمحيط والقائم والذي يضرب جذوره في أعماق التاريخ والحضارة. بعض هذه التساؤلات التي تسللت وطفت على السطح حدت بأحد أعضاء اللجنة التوجيهية العليا لتقديم مجموعة من المبررات المتعلقة بفلسفة الراحلة حديد كونها معمارية اشتهرت وناضلت ضد إرهاصات المهنة والجنوسة والثقافة لتصل لمراحل التكريم العالمية، وبدت هذه التبريرات على نجاعتها غير قادرة على تقديم الأجوبة الشافية للتساؤلات الصامتة التي لم تظهر لاعتبارات الظرف والمكان وضيق الزمن على الأغلب.

في مركز الإسماعيلي بدبي

وكما جرت العادة، كان حفل العشاء الذي أقيم بمركز الإسماعيلي بدبي، وهو أحد ثمانية مراكز منتشرة في العالم، حدثا بروتوكوليا للجائزة. وفي الفناء الداخلي لهذا المبنى المعماري الذي يذكر الزائر بشدة بعمارة المعماري المصري الراحل حسن فتحي، وهي العبارة التي نقلها كاتب هذه السطور لراعي المناسبة تحت قبة البهو الرئيسي للمركز والتي تذكر بقباب وعمارة حسن فتحي لدى مصافحته له :» نحن نحب حسن فتحي جدا!» وهذا المبنى وطرازه المعماري يعيد التذكير بالبدايات الأولى للجائزة والرعيل الأول من روادها وحيث كان المعماري حسن فتحي أول من استلم جائزة الرئيس تقديرا لاسهاماته في خدمة العمارة العربية على مدى مشواره الطويل.

في الفناء الداخلي للمركز تقاطر الضيوف وتجمعوا وقوفا حول موائد مرتفعة صغيرة زجاجية تخللتها الأنوار الكاشفة المبهرة المنبعثة من الأسفل. ودار حولهم الخدم بالمقبلات فيما دارت الأحاديث وتنوعت بتنوع الحزم الصغيرة من الضيوف. ولم يدر بخلد المجموعة الصغيرة التي ضمت كاتب هذه السطور حين تطرق الحديث وتشعب مع رئيسة تحرير المجلة المعمارية العريقة (Architectural Record) الأمريكية كاثلين مكويغان وزوجها الأميركي أن دونالد ترامب سيفوز بعد ساعات من حديث عابر في الإنتخابات الأمريكية. وتفرقت الجموع الصغيرة للفناء المركزي الذي تتوسطه نافورة مياه راحت تضفي على الجو رونقا رائعا بخريرها الصافي فيما توزعت الموائد وتقاطر الخدم رائحين وغادين لاكثر من ساعة قبل أن يتوجه الضيوف لصالة كبيرة حيث اعتلى المنصة فرقة تابعة لمؤسسة الأغا خان من عدد من الموسيقيين، من مبادرة الأغا خان للموسيقى، من الشرق الأقصى وأحدهم من على ما يبدو كان من بلاد الشام راحوا يتبارون فيما بينهم في عزف مقطوعات موسيقية شرقية مستحدثة، فردية وجماعية تمثل موسيقى من إيران والصين وموسيقى حزينة عربية وكل فرد منهم يبدع بآلته الموسيقية البسيطة. وفيما راحوا يتبارزون في مقطوعاتهم استحسن الحضور وفي مقدمتهم سمو الأغا خان العديد من هذه القطع الفنية التي تعبر بعفوية عن ألق فن عريق يعبر عن مشاعر إنسانية وثقافات مختلفة تنشدها دقات على هذا الوتر أو ذاك الطبل أو الناي.

في قلعة الجاهلي بمدينة العين

وإذ انتقل الضيوف في اليوم التالي لمدينة العين وفندق روتانا العين الذي لا يبعد عن القلعة سوى عدة دقائق عبر الشارع المقابل، بدأت التجهيزات لحفل تسليم الجوائز. والقلعة بناء تاريخي بالطين يعبر عن تاريخ المدينة والمنطقة ويظهر نمطا بنائيا وعمرانيا فريدا. وقد تزينت القلعة بالألوان واتخذ الحضور مقاعدهم وتقدم الحفل كلمة لسمو الأغا خان تبعه توزيع الجائزة وقد زها مستلموها وكانت تلك اللحظة تعبر عن تغير جذري في حياتهم المعمارية. وبانتهاء مراسم التوزيع وما تبعه من نقاشات تخللت حفل العشاء تكون الدورة قد اكتملت، لكن العديد من التساؤلات تطل برأسها فيما وراء الحفل وما سيستتبعها من دورات قادمة. فالجائزة بدون شك قد عبرت عن أهداف وسياسات والأطر العامة التي تضعها لجنة التوجيه العليا لكل دورة، وبها قدر نسبي لا يستهان به من تحقيق هذه الأطر العامة من خلال لجنة تحكيم الجائزة التي تعينها اللجنة التوجيهية العليا. لكن هناك تساؤلات تظل محصورة في الهامش الضئيل الخلافي الذي ولا ريب يبرز في كل دورة عن المشاريع التي فازت والمشاريع التي تأهلت ومدى نجاح الجائزة في التعبير الصادق والشفاف في تحقيق النسبة الأكبر من النجاح في عكس هذه الأطر وتحقيق العدالة النسبية في اختيار الفائزين. وهي مهمة ليست صعبة فحسب بل تكاد تكون مستحيلة نظرا لطبيعة العمارة وظروفها المعيارية، فضلا عن تغير لجان التحكيم وطبيعة تعدد تخصصاتهم. لكن السؤال الأهم بين جميع الأسئلة المطروحة يظل في اتجاه بوصلة الجائزة وثبات وجهتها في ظروف عالمية متقلبة وصعبة وتوجهات المناخ الفكري العام نحو العولمة، وبخاصة مع الأخذ بالإعتبار أن الجائزة قد اسقطت محدوديتها في العالمين العربي والإسلامي بإسقاطها كلمة «الإسلامية» التي بدأت مسيرتها بها. وهنا تحديدا تنفتح المتغيرات على طبيعة توجه الجائزة مستقبلا من خلال لجانها التوجيهية ولجنة التحكيم ومدى موضوعية بعض الأعضاء وحياديتهم الفكرية بما يخالف قناعاتهم في إعطاء الشرعية والتقييم العادل لمشاريع باتت تظهر ما قد يجري تحت السطح من نقاش فكري عميق بين أقطاب متباينة من اللجنة. وهذا غالبا ما يتم التصريح عنه حيث تجري المناقشات الساخنة جدا في مراحل ما قبل اختيار المشاريع الفائزة من القائمة القصيرة وما قبلها. والسؤال المهم يظل هو في وجهة الجائزة مستقبلا ومدى دقة القائمين عليها في التعبير عن العمارة بشقها الإنساني الطبيعي البيئي الذي انطلقت منه الجائزة لخدمة المجتمعات العربية المسلمة. وهو سؤال كبير يظل برسم التدبر والإجابة في الدورة القادمة وما يليها.